

— قد كاد أميركم يهلك *

لَمَّا تَكَامَلَ لِلْمُسْلِمِينَ فَتُوحُ الشَّامِ وَأَقَامُوا عَلَى دِمَشْقَ شَهْرًا ؛ جَمَعَ قَائِدُهُمْ - أَبُو عُبَيْدَةَ - أَمْرَاءَ الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَشَارَهُمْ فِي الْمَسِيرِ إِلَى قَيْسَارِيَّةَ^(١) أَوْ إِلَى بَيْتِ الْقُدْسِ ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؛ اكْتُبْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ ؛ لِحَيْثُ أَمْرِكَ فَاثْمَثِلْهُ . فَقَالَ لَهُ : أَصَدَّبْتَ الرَّأْيَ يَا مُعَاذُ .

ثُمَّ كَتَبَ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بِعِلْمِهِ بِذَلِكَ ، وَأَرْسَلَ الْكِتَابَ مَعَ عَرَفَجَةَ ابْنِ نَاصِحِ النَّخَعِيِّ^(٢) ، فَسَارَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ ؛ فَسَلَّمَ الْكِتَابَ إِلَى عُمَرَ . فَقَرَأَهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَاسْتَشَارَهُمْ ، فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَرُّ صَاحِبِكَ يَنْزِلُ بِجِيُوشِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَإِذَا فَتَحَ اللَّهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ صَرَفَ وَجْهَهُ إِلَى قَيْسَارِيَّةَ فَإِنَّهَا تُفْتَحُ بَعْدَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ . فَدَعَا عُمَرَ بِدَوَاةٍ وَكَتَبَ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ عُمَرَ إِلَى عَامِلِهِ بِالشَّامِ أَبِي عُبَيْدَةَ .

« أَمَا بَعْدُ ، فَإِنِّي أُحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَأَصْلِي عَلَى نَبِيِّهِ . وَقَدْ وَصَلْتُ إِلَى كِتَابِكَ تَشْتِيرُنِي إِلَى أَيِّ نَاحِيَةٍ تَتَوَجَّهَ ، وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَسِيرِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَفْتَحُهَا عَلَى يَدَيْكَ ، وَالسَّلَامُ » .

* المستطرف : ٢ - ١٥

(١) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام ، تمتد من أعمال فلسطين . (٢) النخعي : نسبة إلى نخع ، وهي قبيلة باليمن .

(٢٨ - قصص العرب - ٣)

فلما وصل الكتابُ إلى أبي عبيدة قرأه على المسلمين؛ ففرحوا بالسير إلى بيت المقدس وتقدمه الجيشُ إليها، وأقام المسلمون في القتال عشرة أيام، وأهل بيت المقدس يُظهرون الفرح وعدم الخوف.

فلما كان اليوم الحادى عشر أشرفت عليهم رايةُ أبي عبيدة، وخالدٌ عن يمينه وعبدُ الرحمن بن أبي بكر عن يساره؛ فضجَّ الناس بالتهليل والتكبير، ووقع الرُعْب في أهل بيت المقدس فاجتمعوا بقمّة، وهى البيعة^(١) المعظمة عندهم. فلما وقفوا بين يدي البطرك^(٢) قال لهم: ما هذه الضجة التى أسمعُ؟ قالوا: قد قدّم أمير المؤمنين ببيعة المسلمين.

فلما سمع ذلك تربّد^(٣) وجهه، وقال: إننا وجدنا فى علمنا الذى ورثناه؛ أن الذى يفتح الأرض هو الرجل الأحمر، صاحبُ نبيهم محمد؛ فإن كان قدّم عليكم فلا سبيلَ إلى قتاله، ولا بدّ أن أشرفَ عليه، وأنظر إلى صفته؛ فإن كان هو أجبتُهُ إلى ما يريد، وإن كان غيره فلا بأس عليكم.

ثم وثب قائماً والقُس والرهبان من حوله، وقد رفعوا الصليبان على رأسه؛ فصعدوا إلى السور إلى أن ورد أبو عبيدة، فناداهم رجل من الروم: يامعاشر المسلمين؛ كفوا عن القتال حتى نسألكم.

فأمسك المسلمون عنهم فناداهم بلسانٍ عربى: اعلموا أن الرجل الذى يفتح

(١) البيعة: متعبد النصارى، وجمعها بيع، وقامة: كانت كنيسة للنصارى بدمشق، ولهم فيها مقبرة يسمونها القيامة، ويروون أن المسيح قامت قيامته فيها. (٢) البطرك: مقدم النصارى. (٣) تربّد: تغير.

بلدنا هذه صفتُه عندنا ؛ فإن كانت في أميركم لم تقاتلكم ؛ بل نسلم إليكم وإن لم تكن هذه صفتُه فلا نسلم إليكم أبداً .

فأعلم المسلمون أبا عبيدة بذلك ؛ فخرج أبو عبيدة إليهم إلى أن حاذاهم ، فنظر إليه البطرْك مَلِيًّا ، ثم قال : ليس هو الرجل ؛ فأبشروا وقاتلوا عن دينكم وحرِّمكم .

وكان نزولُ المسلمين على بيت المقدس في فصل الشتاء والبردِ ، فأقاموا أربعة أشهر في أشدِّ قتال

فلما نظر أهلُ بيت المقدس إلى شدَّةِ الحصارِ ، ورأوا ما حلَّ بهم من المسلمين ، وقفوا بين يدي البطرْك ، وقالوا : قد عظم الأمرُ ، ونريدُ منك أن تشرفَ على القوم وتَسألَ : ما الذي يريدون ؟ فإن كان أمراً صعباً فتحنا الأبوابَ ، وخرجنا إليهم ، فإما أن نُقتلَ عن آخرنا أو تهزمهم عنا .

فأجابهم البطرْك إلى ذلك ، وصعد في السور ، واجتمع القيسون والرهبانُ حوله ونادى رجل : يا معشرَ الفُرسانِ ، عُمدةُ دين النصرانية قد أقبل يخاطبكم ، فليدُنْ منا أميرُكم .

فقام أبو عبيدة يمشي ، ومعه جماعة من أصحاب رسول الله ، فلما وقف بإزائهم قال : ما الذي تريدون ؟ قال البطرْك : إنكم لو أقمتم علينا عشرين سنة لم تصلوا إلى فتح بلدنا ، وإنما يفتحها رجلٌ ليس معكم !

قال أبو عبيدة : وما صفةُ من يفتحُ بلدكم ؟ قالوا : لا نخبركم بصفته . ولكن

قرانا ان هذا البلد يفتحه صاحب محمد يعرف بالفاروق^(١) لا تأخذه في الله لومة
لائم ، ولسنا نرى صفته فيكم .

فلما سمع أبو عبيدة كلام البطرك تبسم وقال : فتحنا البلد ورب الكعبة اثم
أقبل على البطرك وقال : إن رأيت الرجل تعرفه ؟ قال : نعم ! وكيف
لا أعرفه .

قال أبو عبيدة : هو والله خليفتنا وصاحب نبينا . قال : فإذا كان الأمر على
ما ذكرت فاحقن الدماء ، وابعث إلى صاحبك ، فإذا رأيناه وتبيننا نعمته ، فتحنا له
البلد وأعطيناها الجزية .

فانصرف أبو عبيدة وأمر الناس بالكف عن القتال ، وكتب إلى عمر بعله
بالخبر .

فلما وصل إليه الكتاب قرأه على المسلمين ، وقال : ما ترون - رحمكم الله -
فيما كتب إلينا أمين^(٢) الأمة ؟ فكان أول من تكلم عثمان بن عفان ، فقال :
يا أمير المؤمنين ، إن الله قد أذل الروم ، فإن أنت أقت ولم تسم إليهم علموا أنك
بأمرهم مستخيف ، فلا يثبتون إلا يسيراً .

فلما سمع عمر ذلك من عثمان جزاه خيراً ، وقال : هل عند أحد منكم رأي
غير هذا ؟ فقال علي بن أبي طالب : نعم ، عندي غير هذا الرأي ، وأنا أبديه إليك .
فقال له عمر : وما هو يا أبا الحسن ؟ قال : إن القوم قد سألوك ، وفي سؤالهم ذل ،
وهو على المسلمين فتح ، وقد أصابهم جهد^(٣) عظيم ، من البرد والقتال ، وطول المقام

(١) لقب عمر بن الخطاب . (٢) هو أبو عبيدة . (٣) الجهد : المشقة .

وإن سرت إليهم فتح الله على يدك هذه المدينة، وكان لك في مسيرك الأجر العظيم،
ولست آمن منهم أنهم إذا يتسوا منك أن يأتهم المدد من طاغيتهم ؛ فيحصل
للمسلمين بذلك الضرر . فالرأى أن تسير إليهم .

قال عمر : لقد أحسن عثمان النظر في المكيدة للعدو ، وأحسن علي النظر
للمسلمين ؛ جزاها الله خيراً ، ولست آخذ إلا بمشورة علي ؛ فما عرفناه إلا محمود
المشورة ، ميمون الطلعة .

ثم إن عمر أمر الناس أن يأخذوا الأهبة للمسير معه ؛ واستخلف علي المدينة
علي بن أبي طالب ، وخرج علي بعير له أحمر ، عليه غرارتان^(١) ؛ في إحدها
سويق ، وفي الأخرى تمر ، وبين يديه قرية ، وخلفه جفنة للزاد .

وسار إلى أن أقبل على بيت المقدس ، فلقاه أبو عبيدة ؛ فلما آراه أناخ قلو^(٢)
وأناخ عمر بعيره ، وترجلا ، ومد أبو عبيدة يده ، وصافح عمر ، وأقبل المسلمون
يسلمون على عمر ، ثم ركبوا جميعاً إلى أن نزلوا ، فصلى عمر بالمسلمين صلاة الفجر ،
ثم خطبهم ، فلما فرغ من خطبته جلس وأبو عبيدة يحدثه بما أتى من الروم إلى أن
حضرت صلاة الظهر فأذن بلال في ذلك اليوم ، فلما قال : الله أكبر ! خشعت
جوارحهم ، واقشعرت أبدانهم ، وحينما قال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد
أن محمداً رسول الله » بكى الناس بكاء شديداً عند ذكر الله وذكر رسوله ، فلما فرغ
من الأذان صلى عمر وجلس ، ثم أمرهم بالركوب .

وركب هو - وكانت عليه مرقعة الصوف - فقال المسلمون : يا أمير المؤمنين ،

(١) الغرارة : الجوالى . (٢) القلوس من الإبل : الشابة .

لوركبتَ غيرَ بعيرِكَ هذا جواداً ، ولبستَ ثياباً لكانَ أعظمَ لهيبَتِكَ في قلوبِ أعدائِكَ ! وأقبلوا يسألونه ويتلففونَ^(١) إلى أن أجابهم إلى ذلك ، ونزعَ مرقمته ، ولبسَ ثياباً بيضا ، وطرحَ على كتفيه مندبلاً من الكتان دفعه إليه أبو عبيدة ، وقدم له برذوناً^(٢) أشهب من براذين الروم .

فلما صار عمرُ فوقه جعل البرذونَ يهملج^(٣) به ؛ فلما نظرَ عمرُ إلى ذلك نزلَ مسرعاً ، وقال : أقيوني ؛ أقال اللهُ عثراتكم يومَ القيامة ! لقد كادَ أميركم يهلك مما داخله من الكبر .

ثم إنه نزعَ ثيابه وعادَ إلى لبسِ مرقمته ، وركوبِ بعيره ففعلت ضجةً للمسلمين ، فقال البطرْك لقومه : انظروا ماشانَ العرب .

فأشرفَ رجلٌ منهم ، فقال : يا معشرَ العرب ، ماشانكم ؟ قالوا : إن عمرَ بنَ الخطاب قد قدم إلينا . فرجعَ هذا وأعلمَ البطرْك ، فأطرقَ ولم يتكلم . فلما كانَ الغدُ صلىَ عمرُ بالمسلمين ، ثم قال لأبي عبيدة : تقدم وأعلمهم أني قد أتيت .

فخرجَ أبو عبيدة وصاحَ بهم : إن أميرَ المؤمنين عمرُ بنَ الخطاب قد أتى ، فما تصنعون ؟ قال البطرْك : قل له يدنو منا ، فإنا نعرفه بصفاته ونعمته ؛ وأفردوه من بينكم حتى نراه .

فرجعَ أبو عبيدة إلى عمر ، فأخبره بما قال ، فهمَّ عمرُ بالقيام فقال له بعضُ أصحابه : يُخشى عليك من الافرادِ بلا عُدَّة .

(١) تلتطفوا وتلاطفوا : رفقوا . (٢) البرذون : الدابة . والبراذين من الخيل : ما كان من غير نتاج العراب . (٣) الهملجة : حسن سير الدابة في سرعة .

فقال عمر: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون.
ثم ليس مرفقته وركب بغيره، وأبو عبيدة سائر بين يديه إلى أن أتى بإزاء البطر ك
قريباً من الحصن .

فقال أبو عبيدة: هذا أمير المؤمنين! فده البطر ك عنقه ونظر إليه فرعق^(١)،
وقال: هذا والله الذي صفته في كتبنا .

ثم قال: يا أهل بيت القدس، انزلوا إليه، وخذوا منه الأمان، والذمة، فهذا
والله صاحب محمد .

فنزّلوا مسرعين، وكانت أنفسهم قد ضاقت من شدة الحصار، وفتحو الباب،
وخرجوا إلى عمر يسألونه العهد .

فلما رآهم عمر على تلك الحالة خرّ لله ساجداً على قتب^(٢) بغيره، ثم أقبل عليهم
وقال: ارجعوا إلى بلدكم ولكم العهد .

فرجع القوم إلى البلد ولم يفتقروا الأبواب، وزجع عمر .

فلما كان الغد دخل عمر إليها، وخطب بها محراباً^(٣) وأقر أهلها على عهدهم،
وأداء الجزية^(٤)

(١) زعق: صاح . (٢) القتب: البرذعة على قدر سنام البعير . (٣) المحراب: مقام الإمام
من المسجد، والموضع يتفرد به الملك فيتقاعد عن الناس . (٤) الجزية: خراج الأرض، وما يؤخذ
من أهل الذمة .